أزمة التربية في العالم العربي: أزمة قطاع أم أزمة مجتمع؟
الجزائر نموذجا.

الأستاذ مناد محمد
المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة.

ملخص الدراسة :
المنظومة التربوية في الجزائر قطعت خطوات عملاقة من حيث التغطية و التمدرس وفسحت المجال لكل الجزائريين للاستفادة من التعليم و ترجمت بتواجد الهياكل المدرسية في كل مكان ، ولم تكتف بديمقراطية التعليم وتعميمه بل وإلزاميته مما يؤكد على الجهد المبذول منذ الاستقلال ،وعلى غرار وضع المجتمع الناشئ تعرضت لعدة مراحل من التعليم المفرنس الموروث إلى المزدوج ثم المعرب، والوصول إلى الجزأرة والاكتفاء الذاتي من الكوادر الجزائريين، كل هذا لم يشفع لمسؤولي قطاع التربية في الجزائر في ظل الإنتكاسات والتحديات الجديدة التي فرضتها التغيرات الداخلية والخارجية، والتي أفرزت أزمة حقيقة تهدد المنظومة التربوية في الجزائر، فالدعوة للمسارعة إلى إصلاح النظام التربوي مؤشر على عمق هذه الأزمة وتأثيراتها على البنية الإجتماعية.

الكلمات المفتاحية: التربية،أزمة،التحديات،النظام التربوي،المجتمع.

ملخص الدراسة باللغة الإنجليزية:
The educational system in Algeria made giant steps in terms of coverage and schooling and gave way to all the Algerians to take advantage of education and translated the presence of school structures everywhere, not only democracy Education and circulated even compulsory underscoring the effort since independence, like the development of the emerging exposed to several community stages of "Mufrns" Education heritage to double and then expressed, and access to" Djaz'ara" and self-sufficiency of Algerian cadres, all this did not satisfy officials to the education sector in Algeria in light of setbacks and new

challenges posed by the internal and external changes, which produced a fact that the crisis threatens the educational system in Algeria, The call the rush to reform the educational system indicator of the depth of this crisis and its impact on the social structure.

مقدمة:

إذا كانت غاية التفكير الإنساني القديم تحصيل ألمعرفة وطرق بنائها،لإشباع الفضول وتقديم الإجابات لمختلف التساؤلات المتعلقة بمسائل الحياة اليومية ،وهذا ما جعلها معرفة سطحية مرتبطة بحاجيات الإنسان اليومية،فإن عصرنا يمثل عصر الانفجار المعرفي فازدياد حجم المعرفة الإنسانية وتضاعفه يستدعي ضرورة التحكم فيها وتوظيفها ،فالثروة لم تعد هي المقدرات الطبيعية من مواد خام أو سيطرة على الأسواق...بل أصبحت صناعة المعرفة أي تحويل العلم إلى قوة اقتصادية و عسكرية، وهو ما يعكس تغير موازين القوى .

هذه التحولات فرضت تحولات جديدة ، لمواكبتها يجب توظيف العلم توظيفا اجتماعيا و اقتصاديا و سياسيا. و الجزائر في خضم هذا التسارع الرهيب ،وفي ظل المتغيرات الداخلية والخارجية ،استشعرت وجود هوة شاسعة بين أوضاعها الداخلية والتحولات العالمية مما خلق أزمة ،لحلها سارعت لحتمية الإصلاحات الشاملة وبالخصوص إصلاح المنظومة التربوية.هذا ما يطرح اسئلة ملحة تتعلق بجذور هذه الأزمة ، وإمكانية ربطها بقطاع يقع تحت مسؤولية النظام السياسي والوزارة التي تسيره،أم هي أزمة فكر و مجتمع.**إذن فما هي طبيعة أزمة التربية في الجزائر ؟هل هي أزمة قطاع أم أزمة مجتمع؟ وماهي مستلزمات الخروج من هذه الأزمة؟ وكيف يمكننا التوفيق بين مفهومي الأزمة والإصلاح التربوي؟.**

أولا:التربية و الحياة:

بدأت التربية مع الإنسان منذ القديم وهي في أشكالها الأولى بدأت مع الأقوام البدائية ، فكانت تمتاز ببساطتها وبدائية وسائلها ،وكانت "مجرد ترويض خانع للطفل وتعدها في النهاية وسيلة لتدريب الطفل و الراشد على عادات مجتمعه وتقاليده وأعرافه"[1].وهي تقوم على المحاكاة والتقليد ،جوهرها هو التدريب المرحلي

للطفل على عادات مجتمعه وتقليدها تقليدا عبوديا ،حتى يتوافق وينسجم مع بيئته ويندمج في مجتمعه ،وسيلتها فى ذلك التدريب العملى والتلقين

وأخذت التربية في التطور مفهوما ومنهجا ووسائل وغايات ،وهذا ما نجده من خلال الحضارات الشرقية فالتربية الصينية تستمد أفكارها من تعاليم كونفوشيوس 551-479ق م ،والتربية تقوم على الحفظ عن ظهر قلب فى نقل الأفكار، هذا ما أثر سلبا على الفرد لأنها قتلت فيه روح الإبداع وكانت تقوم على "خدمة النظام القائم وإعداد الموظفين للدولة"[2] .

أما عند الإغريق فكانت التربية تتصف بخصائص مخالفة لما كان سائدا قبلها فصارت التربية مع اليونان"وسيلة لتربية المواطنين وأصبح التعليم جزءا من السياسة العامة للدولة منذ القرن 7 ق م" [3]هذا المفهوم الجديد كرسته التربية الإسبرطية والأثينية لكن بطرق مختلفة وأهداف متباينة.

أما الحضارة الرومانية مجاورة للحضارة اليونانية، لكنها كانت متميزة بروحها العملية أي اعداد الفرد للحياة العملية وهذا ما سعى إليه شيشرون وكوينتيليان، فكانت التربية الرومانية"تلتزم خدمة طبقة واحدة في المجتمع هي طبقة النبلاء وان توجه طاقاتها نحو غاية ضيقة واحدة هى إعداد الخطيب أو القائد السياسي"[4] ،وتربية العصور الوسطى تميزت بصبغتها الدينية فاتخذت الرهبنة أسلوبا لتحقيق أهدافها ومثلها فظهر نظام الأديرة ،لذلك كانت " مقتصرة على رجال الكنيسة وأبناء الطبقات العليا وسيطرة الثقافة اللفظية والتمحكات الكلامية واستعباد العقل للقياس و أشكاله ،وسيطرة الكنيسة سيطرة مطلقة-هذه الكنيسة –التى كانت ترسم لجميع الناس الحدود التيعليهم أن لا يتجاوزوها في الفكر والعقيدة والعمل"[5] فكانت تريد إعداد الإنسان المؤمن بالمسيحية والراهب العالم بتعاليمها والمتوجه للحياة الأخروية، حيث السعادة فكانت الأديرة والكنائس ورجال الدين هم الأقطاب الفاعلين فى التربية.

أما التربية الأسلامية تقترن بالقرأن الكريم والسنة الشريفة، فالمسجد بمثابة اللبنة الأساسية لتنظيم المجتمع وهو مركز التعليم والتربية تهدف الى تكييف وإعداد شخصية المسلم النابعة من الدين الإسلامى ليكون مؤمنا بالله وفردا صالحا،

و تميزت التربية الحديثة بنزعتها النقدية الإصلاحية ،فكانت ردا على تطرف الكنيسة وإلجامها للعقل، وتقييد حرية الفكر فكانت تعلي من شأن العلم، وتثور على المفاهيم الكلاسيكية فهي " تنزع إلى ان تصبح قومية إلى جانب كونها انسانية ويحل الإستعداد للحياة محل الإستعداد للموت"[6]، فالتربية الحديثة هدفها إعداد وتنشئة المواطنين الذين يعملون للوطن ويقبلون على الحياة ويريدون الحقيقة ومن أشهر روادها جون جاك روسو1712-1778 –ايمانويل كانط 1724-1804 وغيرهما.

ثم إن الحديث عن فلسفة التربية في العالم العربي دون ربطها بالعوامل التي اثرت فيها ،أمر صعب،سواء كانت ثقافية أو سياسية و لعل العامل الثقافي التاريخي يمثل أهم هذه العوامل و أخطرها ،فالعالم العربي مر و يمر بفترات تنوعت في أساليبها و أفكارها و خصائصها ،تمثل هزات كان لها الأثر البالغ في بناء الشخصية العربية ، وهو ماخلق أزمة جديدة تشكل تهديدا حقيقيا لوجود الإنسان العربي عموما و الجزائري خصوصا.

ثانيا: أزمة قطاع التربية في الجزائر وتجلياتها:

تشير تقارير التنمية البشرية في الوطن العربي"[7] إلى المعاناة الكبيرة في إنتاج المعرفة، بالرغم من الإنجازات المحققة في ميدان التعليم كما وكيفا، وتوصي هذه التقارير بضرورة عمل الوطن العربي على استيعاب المعرفة، وتوطينها ثم نشرها، وإذا كان التعليم والتدريب ركائز أساسية لبناء مجتمع المعرفة، فإن مؤسسات التعليم المختلفة ملزمة بلعب دورها كاملا للمساهمة في تنمية الحياة الإقتصادية والإجتماعية، والحديث عن مؤسسات التعليم يقتضي الحديث عن النظام التربوي، باعتباره جزءًا هامًا وأداة فاعلة فيه،والواقع أن هذه المؤسسات تعيش أزمة خانقة تجعلها بعيدة عن الأدوار المنوطة بها.

ويتخذ مفهوم الأزمة تعاريف عدة منها أنها: " من العوائق والمشكلات و العراقيل و التوعكات التي يعاني منها قطاع أو مجال أو شيء ما، والتي تشل حركيته العادية، وتخلخل أو تعوق إيقاع سيره الكبيعي، أو تجعله محدود المردودية والكفاية، غير مستجيب، بشكل فعال، لمجمل الأهداف والغايات والمقاصد، التي من المفترض أن يسير باتجاه تحقيقها"[8].

ويمكن تقديم تعريف عام لها أنها"أزمة مركبة متشابكة العناصر والمكونات. إنها أزمة بنيات وهياكل، وتوجهات تنموية، واختيارات سياسية وثقافية واقتصادية واجتماعية شمولية، وناظمة للكل المجتمعي، بتعدد مجالاته وقطاعاته الإنتاجية والاجتماعية العامة"[9].

فإذاكان البناء النهضوي الحضاري يقوم على مشروع تربوي هادف، باعتبار أن النشىء هم عماد المستقبل فإن "التربية في البلاد العربية، شأنها في أي بلد في حاجة إلى تطوير وتحديث وجهود دائبة مستمرة من أجل اللحاق بالتطور السريع في المعرفة في عالمنا"[10].

فمشكلة العالم العربي عموما والجزائر خصوصا مشكلة نقص المعرفة، وغياب الرؤية الفلسفية التربوية، فالكثير من الإجتهادات والمخططات التربوية، جاهزة إستهلاكية لم تنطلق من رؤية موضوعية للواقع ، فكان النموذج الغربي هو مفتاح المشاكل التربوية من منظورهم للحاق بركب العالم المتقدم.

لهذا فإن من أهم تجليات هذه الأزمة نذكر:

1- الأمية:

الأمية ظاهرة إجتماعية سلبية متفشية في معظم أقطار العالم وبخاصة في النامي منه[(11)] والأمية تشير إلى عدم معرفة القراءة والكتابة، وبالتالي فكل ما هو سلبي من جهل ونقص في العقل والإيمان وغياب السلوك الراقي، والتفاعل الإجتماعي الناقص يرد إلى الأمية، فهي أصل كل المشكلات، فهذه الكلمة في العصر الحديث تتضمن أبعاد أخرى تتعلق بالحضارة والتعليم، وهي مشكلة في العالم العربي كونها تشمل الغالبية العظمى للسكان وتتفاوت نسبيا بين مختلف أقطاره، وتنتشر كثيرا في الأرياف وبين النساء.وأوضحت الألكسو "المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم "التي تتخذ من تونس مقرا لها في بيان وزعته ،أن تقرير تحديات التنمية في الدول العربية للعام 2011 أشار إلى أن معدل الإلمام بالقراءة والكتابة في الدول العربية وصل إلى 72.9 في المائة أي أن نسبة الأمية تصل إلى 27.1 في المائة.

و أضافت في بيانها أن 60% من الأميين في الوطن العربي هم من الإناث، ونقلت عن تقرير الرصد العالمي للتعليم للجميع للعام 2011، أن هناك 6.188 ملايين طفل

وطفلة في الدول العربية غير ملتحقين بالتعليم ممن هم في سن الالتحاق بالتعليم"[12].

واعتبرت أن هذا العدد يمثل رافدا دائما للأميين العرب، يضاف إلى ذلك ظاهرة التسرب من التعليم في مرحلته الأولى التي تبلغ ما بين 7% و20% في معظم الدول العربية، حيث تصل في بعضها إلى 30%.

وتعود أسباب هذه الظاهرة إلى عهود الإحتلال الأجنبي، الذي حرم السكان من التعليم، والزيادة السكانية الهائلة، والتسرب المدرسي بسبب الظروف المادية كقلة الدخل الفردي وتدني مستوى المعيشة.

واتجهت الجزائر للحد من تفشي هذه الظاهرة لأساليب مختلفة ،تدعوا إلى محو الأمية لتحقيق التنمية الإقتصادية و الإجتماعية ،غير "أن الجهود المبذولة متواضعة جدا إذا ما قورنت بحجم المشكلة وأن الدول العربية لم تضع محو الأمية من حيث الأهمية في المكان الذي تستحقه"[13] والمهم هو وجود الإرادة في التغيير، لآن النجاح لا يتحقق في زمن قياسي، فالأمية خطر يتهددنا والقضاء عليه واجب، فمحو الأمية عملية تربوية في ذاتها، وهي حضارية لأنها تعيد للإنسان الجزائري إنسانيته.

2- **هجرة الكفاءة العلمية:**

تمثل هذه الظاهرة السلبية " نزيفا فكريا وعلميا بشريا، والذي لا يكاد أن يقدر بثمن، ثروة حقيقية أو ضريبة حتمية، تدفع للدول الصناعية والمتقدمة"[14]، فالكوادر الجزائرية التي بذلت على تكوينها وتعليمها الأموال كي تشارك مستقبلا في التنمية والتطوير تذهب هدرا، وعلى عكس المأمول فهي تشارك في تنمية من يستعبدنا ؟؟هذه خسارة ، لأنها تخص النخب المثقفة وإلاطارات الجامعية وهي في إزدياد مستمر، بما يحول دون بناء القدرة الذاتية للدولة.

وتعزي هذه الظاهرة لأسباب متعددة منها:

- تدني مستوى الدخل الفردي ، مقارنة مع الدول الأجنبية، فالكفاءات العلمية باحثة لها حاجيات وإمكانيات الدول العربية (بعضها) لا يستطيع توفيرها.

- البيئة العربية غير صحية لا تساعد على البحث العلمي ولا تشجعه خاصة إذا علمنا أن التوجه السياسي العام للبلاد العربية لا يحفز على الإبداع العلمي والمعرفي.

- وهناك التخلف العلمي والثقافي ، وغياب المؤسسات العلمية المتطورة كمراكز البحث الإستراتيجية وغياب الحرية الفكرية وعدم إستقطاب هذه الكوادر العلمية.

3- **غياب التخطيط التربوي:**

التخطيط التربوي هو " تحديد تنظيمي تقويمي للأهداف التربوية وإختيار طرائق إستغلال الموارد المتاحة المختلفة يستهدف التنسيق والتكامل بين تطوير التربية وعلاقتها بالتنمية الشاملة"[15] فالتخطيط التربوي يعكس الفلسفة التعليمية الواضحة التي ترشد العمل في ميدان التعليم وتوجيهه، لأجل التنبؤ بسير العملية التربوية مستقبلا، والتخطيط التربوي عقلنة العملية التربوية وحل مشكلاتها، لأنه يجدد الأهداف النوعية، ويقترح أفضل الأساليب والأدوات لتحقيق ذلك، والتخطيط التربوي يستقريء الواقع التربوي فيحدد واقعه ويتنبأ بمستقبله فهو عملية إستراتيجية شاملة، يحقق التفاعل بين العملية التربوية والتنمية الإقتصادية و الإجتماعية والثقافية.

غير أن التخطيط التربوي في الجزائر ضعيف بسبب نقص الخبرة لدى المؤطرين، وغياب الثقافة العلمية والنظرة الواقعية، وحتى عدم الإيمان بفاعليته وجدواه، إضافة إلى غياب المتابعة لعملية التخطيط التربوي، وإخضاعه للرقابة، وصياغته في قوالب مستوردة لا تتلاءم مع الطبيعة الإجتماعية للدولة.

4- **غياب الفلسفة التربوية:**

يفتقد العالم العربي ،كما الجزائر، إلى فلسفة تربوية خاصة نابعة من قيمه وعاداته الإجتماعية، ومقوماتها وثقافتها وتكمن أهمية وجود فلسفة تربوية عربية بالنظر إلى الواقع المتأزم لنظمنا التربوية التعليمية والمشكلات التي يعانيها، وضرورة إيجاد حلول مستعجلة لها، وهو ما يجعلها تتطلع إلى مستقبل جديد يلبي متطلبات الأجيال العربية، " وتحاول تحديد ملامح المجتمع العربي وتحديد ملامح الإنسان العربي مستقبلا"[16].

هذه الفلسفة التربوية تتناول العمل التربوي من جميع جوانبه خاصة ما تعلق بتعليم المرأة فتعليم المرأة متأخر عن تعليم الرجل"نسبيا بين البلدان العربية كالجزائر

والسودان"، وتعريب التعليم لأنه " لا يتنافى في البلاد العربية مع تعليم اللغات الأجنبية، بل على العكس ينبغي الإهتمام بتعليم هذه اللغات الأجنبية من حيث أنها ضرورة لربط العالم العربي بحركة التقدم العلمي في البلاد المتقدمة وإنفتاحه على العالم الخارجي"[17]، فتعريب التعليم تعزيز للغة العربية وربط للأفراد بجذورهم، فهي تستطيع استيعاب جميع العلوم، وتقوي روابط الوحدة بين الأفراد، وها لا يعني رفض اللغات الأجنبية.

فالحاجة الى فلسفة تربوية تجمع عناصر العملية التربوية ومحدداتها ضمن أطرها الزمانية والمكانية أمر حتمي لتأكيد بناء الإنسان العربي الواثق بقدراته المحب لوطنه، وتكوين فكر علمي منظم والإسهام في العمل الناجح الذي يبني الحضارات بالنظر إلى واقع الأمة العربية وأحوالها والوقوف عند أهم مكوناتها.

مهما يكن فإن الإجتهادات التربوية العربية المعاصرة ساهمت إلى حد كبير فى رسم معالم فلسفة تربوية -فتية- عربية معاصرة تحاول بناء مشروع تربوى –نهضوى- يرتقى بالإنسان العربى ومجتمعه فى سياق الأهداف التربوية العربية وما تتظمنه من معرفة عن طريق التعليم.

هذه بعض أزمات الواقع التربوي في الجزائر ،والتي تحمل دلالات متعدة المضامين وتعكس مدى عجز النظام التعليمي والسياسة التربوية عموما عن تحقيق الدمقرطة الحقيقية والتكافؤ الشامل للفرص التعليمية والاجتماعية، وهو ما انعكس سلبا على واقع الانفصام القائم حاليا بين مضامين التربية والتعليم والتكوين وبين الحقل الثقافي والاجتماعي العام، وعدم الإنسجام التام بين مخرجات أنظمة التعليم والتكوين وبين قطاع العمل والاقتصاد والمجالات الإنتاجية التي تساهم في الإنتاج.وبالتالي ضعف المردودية أو الكفاية الداخلية للأنظمة التعليمية والتكوينية.

ثالثا:لإصلاح التربوي في الجزائر و أبعاده:

- تمثل مسألة الإصلاح التربوي في الجزائر أحد القضايا الشائكة و المعقدة، لما لها من إمتدادات سياسية و إجتماعية، و عالمية أيضا، فالثورة التكنولوجية و إفرازاتها، تمثل تحديا مهما للنظم التربوية لذلك أصبحنا نشهد تداعيا للمنظومات التربوية الضعيفة أمام المد الحضاري التقني، و لهذا أخذت الجزائر في تجديد وإعادة بناء

نظامها التربوي ليكون قادرا على التواصل مع تطورات الحياة، و النهوض بطاقاتها و إصلاح أحوالها، لأجل بناء الإنسان النموذج القادر على البناء و المشاركة في التنمية و تطوير المجتمع.

ولقد بدأت الجزائر خوض جملة من الإصلاحات الهادفة إلى ترشيد الحكم و بناء الدولة العصرية و لتحقيق التنمية الشاملة لمواجهة القرن 21 و تحدياته، و إذا كان هذا التحول بيني على جملة من المرتكزات و الأسس، فإن بناء النوعية البشرية التي تقود مشعل التجديد و البناء و تحمل الأعباء يمثل لب هذه العملية، و هذا لا يكون دون الإصلاح العميق و الشامل للمنظومة التربوية، و الحقيقة التي لا ينكرها إلا أعمى بصيرة ،هي أن تجارب الدول المعاصرة خاصة دول شرق أسيا و التي حققت قفزة نوعية في كل المجالات ،كان لنظام التعليم فيها الأثر البليغ في بناء نهضتها .

و الجزائر كغيرها من الدول، يتكون نظامها التربوي من 03 قطاعات كبرى، التربية الوطنية و التكوين المهنى و التعليم العالي، و هذه القطاعات تمنح:

1- تعليما أساسيا و إجباريا لكل الأطفال ما بين 06 سنوات إلى 16 سنة و تشمل مرحلة التعليم الابتدائي و المتوسط، و تتوج بشهادة التعليم المتوسط.

2- تعليما ثانويا مدته 03 سنوات يتوج بالبكالوريا.

3- تعليما عاليا يوفر تكوينا متنوعا في مرحلة التدرج أو ما بعد التدرج في الجامعات و المعاهد المدارس.

4- تكوينا مهنيا يحقق تكوينا اوليا وتكوينا مستمرا.

إن لغة الإصلاح تختلف باختلاف المنظرين و المربين و الممارسين، فالإصلاح عند السياسي ليس هو الإصلاح عند المربي، لأن لغة المربى لغة علمية منهجية بعيدة عن الحسابات و المصالح الضيقة، لهذا فالإصلاح لا يحدث بطريقة عشوائية أو ارتجالية بل هو مشروع تبرره الدراسة المنهجية، و تدفع إليه الحاجة إلى التطوير.

الإصلاح من الفعل صلح: أي زال عنه سبب الفساد و انتفى.

وورد مصطلح الإصلاح في القرآن الكريم في قوله تعالى: " إن أريد إلا الإصلاح ما إستطعت" سورة هود 88. و الإصلاح معناه إقامة الشيء و تعديله بعد فساده واعوجاجه لتحقيق النفع و إزالة الضرر.

"الإصلاح محاولة فكرية أو علمية أو علمية لإدخال تحسينات على الوضع الراهن للنظام التعليمي سواء كان ذلك متعلقا بالبنية المدرسية أو التنظيم أو الادارة أو البرنامج التعليمي أو طرائق التدريس أو الكتب الدراسية وغيرها" [18]

كما يشير عادة إلى "عملية التغيير في النظام التعليمي أو جزء منه نحو الأحسن وغالبا ما يتضمن هذا المصطلح معاني اجتماعية، واقتصادية، وسياسية"[19].

- ويعرفه عالم الاجتماع أحمد الخشاب بأنه" تغيير يكون إما جزئيا أو جذريا لمجال من مجالات الحياة، سواء كان في المجال الثقافي أو الإجتماعي أو السياسي أو الديني"[20].

اذن فمفهوم الإصلاح مرادف لفعل التجديد RENOUVELER عندما ندخل على ما هو قائم أو ممارس ما يجدد شكله أو فعله سواء في تكنولوجيا التعليم أو في مناهج الدراسة و أساليب تعليمها و تقويمها أو في صيغ الإدارة المدرسية و نظم إعداد المعلمين.

و قد يرتقي هذا التجديد إلى مستوى الخلق و الإبداع بمعنى ابتكار شيء جديد لم يكن له مثال معروف.

إذن فالإصلاح التربوي عملية منهجية متكاملة، شاملة لعناصر العملية التربوية تهدف لإحداث التغير الأحسن و البناء الكامل للأداء التربوي، وفقا لفلسفة محددة واضحة المعالم، تهدف إلى تحسين المردود التربوى .

إن المدرسة الجزائرية برغم تطوراتها وإنجازاتها المحققة في عدد المتمدرسين و الأساتذة والهياكل المتوفرة إلا أن الواقع يثبت تدنيا في المستوى ونسبة رسوب عالية، ضف إليها المشاكل المتعلقة بآليات تحقيق الأهداف التربوية، والنتائج المرجوة من الإنفاق المادي الكبير على المنظومة التربوية هذا ما أدى إلى ضرورة إعادة النظر في المنظومة التربوية بشكل عام للوقوف على نقائصها وأسباب إنحطاطها، وأبراز الثغرات في عناصرها،ولقد عرفت المنظومة التربوية الجزائرية عدة إصلاحات أهمها اعتماد المدرسة الأساسية كما جاء في أمر 1976، وانشاء المجلس الأعلى للتربية سنة1997، وتنصيب اللجنة الوطنية لإصلاح التعليم بتاريخ 13 ماي 2000، ثم تم إلغاؤها، وإدخال تعديلات على هيكلة الأطوار التعليمية والجذوع المشتركة ،لذلك فالإصلاح التربوى عملية شاملة تنطلق من المتعلم الذى يشكل روح العملية التربوية

ثم يأتي على المادة التعليمية ومضمون المعرفة المقدمة من خلال الكتب، وبعث روح النشاط في المتعلم، والمعلم والأسرة التربوية ككل وهذا لأجل إنجاحها ، وكما أنها عملية مكلفة من حيث الجهد والمال والوقت.

فالإصلاح التربوي يمثل في مطلع هذا القرن هاجسا للمجتمعات البشرية في محاولة لخلق عالم العدل والمساواة والقيم الإنسانية والتربية المتجددة التي تنطلق من الإنسان لتعود إليه.

وجاء الإصلاح التربوي الأخير في ظل ظروف داخلية وخارجية مهمة وخطيرة معا، فالشأن الداخلي الجزائري عرف حراكا سياسيا جديدا عنوانه التعددية الحزبية و الديمقراطية، في دستور 1989، و هو ما جر البلاد إلى ظروف أمنية خطيرة (العشرية السوداء) و دخلت الجزائر أزمة سياسة و أمنية ثم إقتصادية خطيرة جدا ، مارست عليها المؤسسات المالية الأجنبية ضغوطات كثيرة.

إضافة إلى ذلك ،إفتعلت أزمة الهوية داخل الجزائر بين إتجاه قومي عربي، و آخر يستحدث البعد الأمازيغي و كل هذا من مخلفات الاستعمار ، الذي "إستغل البربر كوسيلة لإدارة صراع سياسي قوي ضد العربية و حاول إيهام الرأي العام بأنه في المغرب العربي و في الجزائر خاصة شعبان متمايزان الشعب الأمازيغي و الشعب العربي"[21] و عملة هذا كان مقصودا لأجل نشر الكراهية و التقرفة و الحقد و التمييز العنصري بين الإخوة، و عرفت الجزائر أزمات بفعل هذه الخديعة "أي الأزمة البربرية، ثم تلاها ترسيم اللغة الأمازيغية، بتاريخ: 2002/04/10.

إلى جانب هذه الظروف الداخلية، هناك ظروف خارجية (دولية) صاحبت الإصلاح الأخير و أهمها تبلور و بروز ظاهرة العولمة، مع الإنتشار الهائل لتكنولوجيا الإتصال و التواصل و التكتلات الإقتصادية الكبرى و حرية التجارة.

لذلك فالإصلاح التربوي نتيجة حتمية لمعطيات جديدة، كالتحولات العالمية في المجالات المعرفية و العلمية و التحولات العميقة التي عرفها المجتمع الجزائري و المشاكل المتراكمة على المنظومة التربوية منذ الإستقلال،كل هذا لإبداء الآراء و الاقتراحات الناجعة لإصلاح الخلل، و إضافة الجديد، و رصد كل الحلول للمشكلات التربوية ووضع التصورات و الإجراءات التي من شأنها تعزيز مجانية التعليم و إلزاميته للسماح بالتمدرس الأفضل و لتحقيق العدالة في التعلم. و اقتراح الحلول

لبناء المنظومة التربوية المتكاملة التي تجمع بين الكم و النوع في الأداء التربوي و هذا بإدماج تكنولوجيات التعليم، و تعليم اللغات الأجنبية، وهذه إستراتيجية للتغيير و التجديد تستثمر في العنصر البشري ،باعتباره أداة التنمية خاصة إذا استطعنا بناء المواطن الذي يتقن الجمع بين التراث و التفنن في مواكبه روح العصر، أى احداث تغير إيجابى وتحقيق التطور فى الأداء المدرسى وتحقيق الجودة "ويتحقق ذلك حين يصبح المردود متكافئا مع الجهود وتصبح الجهود فى مستوى الأهداف ويرتفع الوعى بأهمية العلم وتقل مظاهر الإخفاق"[22] .

لذلك يقصد الإصلاح التربوى إلى أهداف منها :

*تعزيز العمل التربوى من خلال تثمين وظيفة المعلم "وإعادة الاعتبار لمهنة التعليم وجعلها فى طليعة المهن بإحاطتها بالرعاية الكاملة المادية والمعنوية والبيداغوجية "[23]لأن التعليم أرقى المهن وأقدسها و لاخير فى أمة لا تبجل معلميها.

*ويشمل الإصلاح التربوى المحتوى التعليمى ومناهج التدريس "وإعادة بناء هذه المحتويات وفق تدرج منهجى يراعى فيه قدرات المتعلمين وحاجاتهم "[24] لأن التربية لم تعد تلقينا ، ولم يبقى التعليم حشوا وكما من المعارف، بل هو يرمى إلى كيفية توظيف المعرفة واستثمارها عمليا لمواجهة المشكلات .

*وهناك الأهداف التربوية التى ينبغى صياغتها وتحديدها ،وفق متطلبات المجتمع وقدرات المتعلم و إمكانيات الدولة ثم تحسين الأداء التربوى بتحسين هياكله القاعدية و عصرنتها لتتماشى ومتطلبات الحراك الحضارى لمواجهة تحديات الإنفجار المعرفى الذى يشهده القرن الواحد والعشرون، وكذلك لكونها تعد من بين الطرائق البيداغوجية التى تجعل المتعلم محور العملية التعليمية وتكسبه مهارات تمكنه من إدماج معارفه وتحويلها إلى معارف أدائية "[25] ،أي يتحول المتعلم من مخزَّن للمعرفة إلى مستثمر لها في مواجهة المشكلات وإبداع الحلول ،فهوإستراتيجية تجعل من المتعلم صميم العملية التربوية ،فهى تهتم بالفعل أكثر من المعارف النظرية فليس المهم هو الحشو والتلقين ، بل المهم هو القدرة على إنتاج المعرفة وتوظيفها عمليا، لأنها تنمو وتتطور لتتحول إلى مهارة و إبداع الحلول للمشكلات، فتخلق في التلميذ كفاءة خاصة ترتبط بمادة دراسية معينة ،كما تخلق كفاءة عامة ترتبط بالمواد

الدراسية الأخرى ،فيكون التلميذ مستعدا للمناقشة و الإستدلال والتحليل ،وتنمو فيه مختلف جوانب شخصيته المستهدفة من التربية .

رابعا :الأزمة التربوية في الجزائر وعلاقتها بالمجتمع:

يولد الإنسان خاليا من المعرفة المتعلقة بالقيم والمعايير والقواعد الإجتماعية ومع مراحل نموه المختلفة بتبلور الأنا ويبدأ في التفاعل مع الأنا الأعلى، مما يؤدي إلى الإنسجام الاجتماعي،أما إذا إضطرب الأنا، وانعزل عن المجتمع اضطربت القيم الإجتماعية لديه، فيحدث إختلال وتعارض بين الذات والمجتمع لهذا تمثل التربية أهم أدوات الإندماج و التفاعل الإجتماعي، بما تحمله من قيم ،لذلك تفعل التربية في تعزيز الشعور بالإنتماء للمجتمع الجزائري ووحدته الثقافية والوطنية، وهذا ما يؤدي إلى خلق تناغم و انسجام إجتماعي، عن طريق تكريس القيم والعناصر الأساسية للهوية الجزائرية والمجتمع الجزائري والمتعلقة في الإسلام، والعروبة والأمازيغية، فهذه العناصر هي المكونات الرئيسية للمجتمع الجزائري، و جعل الأجيال الصاعدة ثمرة لجيل ثورة نوفمبر، واستمرارية له وهذا لأجل خلق التلاحم وتأكيد التراث التاريخي للمجتمع الجزائري ووحدته، لأن المجتمع الجزائري المعاصر بمختلف تياراته وشرائحه انما هو نتاج تضحيات لجيل الثورة المباركة وهذا يعكس الإستمرارية الثقافية والفكرية لجيل الثورة، و تطلعاته، في خلق مجتمع يسوده السلم و الديمقراطية، و الإحترام المتبادل، وتقبل الآخر.

فالأزمة التربوية أثرت سلبا على دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية، لأنها المدرسة الأولى التي يغترف منها المتعلم ، ولهذا تجسد وظائف كثيرة منها:

-التنشئة الاجتماعية للطفل، فيتعرف على محيطه وبيئته بمختلف مكوناتها، والأنماط الثقافية السائدة فيها، فيتعلم مختلف القيم، والعقائد الدينية والقوانين الاجتماعية.

كما تعمل الأسرة على إكساب الطفل طرق التكيف والتواصل مع البيئة الاجتماعية، من خلال تعلم اللغة، وطرق التفكير، لهذا نجد الطفل ينظر إلى الميراث الثقافي من وجهة نظر أسرته، وعليه فإن، التراث التاريخي والثقافي، ووحدة الشعور لا يتعزز إلا إذا لعبت الأسرة دورها كاملا في التنشئة.

ولعل تركيز الإصلاح التربوي على دور الأسرة في التنشئة الاجتماعية إنما يعود لدورها في الاستثمار والإنتاج الاجتماعي، لأنها تعتبر الوعاء الاجتماعي الذي تنمو فيه بدور الشخصية الإنسانية، فتتفاعل لدى الطفل خبراته الأسرية مع مكتسباته المدرسية فالأسرة تمثل دور الوسيط بين الطفل والثقافة الاجتماعية.

و المدرسة هي المؤسسة الإجتماعية المتخصصة في تنظيم المحتوى الحضاري والثقافي للمجتمع الجزائري وتقديمه بطريقة مناسبة للتلميذ حتى تنمي فيه مختلف القواعد الاجتماعية (الثقافية، المعرفية، السلوكية...) حتى يكون لبنة أساسية في بناء المجتمع لأنها تمارس تأثيرا كبيرا في تكوين شخصيته الأطفال وتحفظ الإنسجام والوحدة الاجتماعية فهي تمارس الضبط الإجتماعي،لأنها توجه السلوك الفردي ليتلاءم مع السلوك الجمعي،فالأسرة والمدرسة تتحملان واجبات تربوية مما يستدعى ضرورة التواصل بينهما لأنهما يشتركان في التوجيه و الرعاية والمتابعة أي أنهما مؤسستان تتكاملان عمليا.

كما تعبر هذه الأزمة التربوية الاجتماعية عن نفسها من خلال بعض المظاهر المشار إليها قبلا فإن لها عواقب وامتدادات تربوية وثقافية واجتماعية تمثل تحديات إقتصادية و تكنولوجية إلى تنموية...الخ وهي تمثل ضغطا على الوجود المجتمعي للجزائر، ثقافة وهوية وحضارة، تتقاطع في كونها تحديات داخلية نابعة من التخلف والجمود والتقوقع على الذات، وتحديات خارجية تفرضها ظاهرة العولمة التي تمثل روح الحضارة الغربية، فالثورة الرقمية والتكنولوجية " تضع الأمة العربية في أزمة حضارية فريدة في تاريخ الأمة"[26] هذا الواقع المرير فرض على النخبة، ورجال تربية البحث عن عوامل النهوض والخلاص من الأزمات والمشاكل.

فالتربية وحدها قادرة على بعث روح الوعي الخلاقة القادرة على إنتاج الإنسان المنشود البعيد عن العقلية التقليدية الخاضعة للتسلط والتواكل.

إن النهضة تبدأ من تغيير نظرة الإنسان إلى نفسه ومجتمعه وعالمه، والإستثمار في العنصر البشري عن طريق فلسفة تربوية خلاقة، ولو تأملنا تاريخ التربية العربية إلى عهد قريب نجدها "تنظر إلى الإنسان العربي على أنه مسير لا مخير وعلى أنه شرير بطبعه، ومن ثم يجب توجيهه وتربيته بحيث يكون متلقيا للأوامر مستعدًا للإستجابة"[27].

هذه النظرة لا تتفق مع التغيرات المتسارعة ،لأنها خلقت السلبية الفردية فساد التخلف، واستبد الحكام، وساد الإنحطاط، والتفتح المتسرع على العالم الخارجي أنتج نوعا من التنوير الفكري وظهور المفاهيم الجديدة الداعية إلى العصرنة، وتحديث الأنماط الثقافية و الإجتماعية السائدة التي تجعل الفرد منطلقا لها.

والفرد الجزائري يحتاج إلى المعرفة والعلم، والفلسفة التربوية تؤسس للمناهج التعليمية والدراسية الحديثة والعملية، المتصلة بالزراعة والصناعة والصحة..الخ أضف إليها التنشئة العسكرية، التي تجعل الفرد قادرا مستعدًا للتضحية والكفاح.

خامسا: مستلزمات الخروج من الأزمة وتجاوزها بفكرة الإصلاح :

يتميز الخطاب التجديدي في الفكر التربوي المعاصر بالنظرة الشمولية و المنظور التكاملي لمفهومي الأزمة والإصلاح ، وللخروج من التخلف والتبعية والحلول الإرتجالية ينبغي "الالتزام برؤية واسعة تتجنب الاختزال، وتقوم على نقد مختلف الرؤى والتصورات الضيقة المحدودة، وتنظر بناء على ذلك، للأزمة التربوية التي تعرفها مجتمعاتنا في مختلف أبعادها ودلالاتها ومكوناتها وامتداداتها... كما تنظر إلى الإصلاح التربوي أيضا في شموليته، أي باعتباره أنه يجب أن يكون ناظما للكل التربوي، وممتدا، ومتداخلا مع المحيط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي العام الذي يستهدفه"[28]

فمن شروط ومستلزمات الإصلاح التربوي المنشود:

ضرورة الجمع والربط المحكم بين فكرة إصلاح القطاع التربوي وبين الإصلاح الشامل للنظام الإجتماعي. على أساس "الإصلاح المتوازي والمتكامل المسارات" أي ذلك الإصلاح "الذي تنتظم فيه بشكل تكاملي، كل الجوانب والمكونات التي تجعل منه إصلاحا شموليا بعيدا عن كل اختزال أو تبسيط .

ضرورة تبني فلسفة تربوية إصلاحية واضحة في معالمها، تؤطر العمل التربوي، وتوجهه وتحدد أهدافه وتختار محتواه وأنشطته التعليمية، كما يجب أن تكون هذه الفلسفة نابعة من الفلسفة العامة للمجتمع تراعي خصوصيات الأفراد وتطلعات المجتمع.

ضرورة تحديد مفهوم الأزمة التربوية القائمة بكل مسبباتها وأبعادها وتحدياتها ، ومكوناتها، وتجلياتها، وامتداداتها، ليكون الإصلاح التربوي، الذي يطمح إلى أن يكون عقلانيا وإيجابيا .

خيار الإصلاح التربوى خيار إستراتيجي، يجب إشراك جميع الفئات الإجتماعية الفعالة فيه، من خبراء وأساتذة، وسياسين وجمعيات أولياء التلاميذ .

عند الرجوع إلى صياغة القوانين المتعلقة بالتربية الوطنية يجب الرجوع إلى أهل الإختصاص من خبراء القانون ومشرعين جزائريين وأكاديميين ذوو خبرة.

إن التحديد الشمولي للأزمة، لا ينبغي أن يفهم منه أنه يلغي الأهمية النسبية، التي يمكن أن يحتلها بعض عواملها ومكوناتها ، غير أن إقرار هذه الأهمية النسبية لا يتنافى، نظريا ومنهجيا، مع ضرورة الإدراك الشمولي لكافة عوامل وعناصر الأزمة.

الإطلاع على التجارب والنماذج الإصلاحية في المجتمعات المتقدمة والإسترشاد بها في عملية التخطيط التربوي والمشاريع الإصلاحية،لأن تهيئة الإنسان الجزائري وتربيته تربية شاملة أصيلة ومتفتحة، تستند إلى فلسفة تربوية نهضوية متوازنة في أسسها وكفيلة بصنع جزائر متطورة ومجتمع حضاري.

خلاصة:

تعتبر التربية فى الجزائر نموذجا لما تعيشه الأقطار العربية ،من مشاكل وتحديات ، وإن كان التعاطي بين الدول العربية مع هذه التحديات والمشكلات مختلف،بسبب الظروف والإمكانيات ،إلا أن ما يجمع بينها هو الإسراع إلى تبنى خيار الإصلاح ، ورصد الإمكانيات المادية والبشرية لحل المشكلة التربوية والإندماج في مجتمع المعرفة، والإصلاح التربوي في الجزائر لا زال مستمرا ،حتى يتكيف مع التغيرات العالمية ، ويحقق الأهداف التي سطرها في صنع الإنسان النموذج المنشود.

إن مفاتيح حلول الأزمة التربوية تعود إلى الفلسفة المتبعة فى المجتمع فتكون المدرسة فى مناهجها مراعية للمشكلات والحاجات الإجتماعية ،وهو ما يعزز فى المتعلم ممارسة عاداته الإجتماعية و إحترام الأعراف والتقاليد ،فيشعر بالإنتماء وتسود الوحدة فيكون المتعلم ممارسا للثقافة الإجتماعية وطرفا أصيلا فى تحسينها كلما أدرك رتابتها وجمودها .

إن هذه التفاعلية الإيجابية بين الفرد والتربية والمجتمع تحتاج إلى عنصر أساسى ومهم، هو المعلم الذى يمثل أحد مدخلات العملية التربوية لأنه يمثل نوعية التعليم واتجاهاته وهو ما يعطينا رؤية حول نوعية الأجيال المستقبلية ،فالمعلم يمثل الموجه والمرشد والمنمى لقدرات التلاميذ وتطوير مهاراتهم وهو الذى يصحح الأخطاء لهذا تحتاج الفلسفة التربوية الإصلاحية إلى معلم من الطراز الرفيع علما وخلقا ومعرفة و أسلوبا وشخصية ،هذا ما يدعو إلى ضرورة تحسين أداء المعلم وضرورة إمتلاكه للمهارة الكافية لإنجاح العملية التعلمية والتربوية لأنه يساهم فى بناء شخصية المتعلم القادر على التعايش والتفاعل الإيجابى مع المجتمع.

الهوامش:

(1) - عبد الله عبد الدائم، التربية عبر التاريخ من العصور القديمة حتى اوائل القرن العشرين، دار العلم للملايين.، بيروت، لبنان، ط5، 1984 ص14

(2)- النجيحي محمد لبيب ، في الفكر التربوي. دار النهضة العربية للطباعة و النشر ، ط2، 1981ص 75

(3)- عبد الغنى عبود، التربية المقارنة فى نهاية القرن – الاديولوجيا والتربية من النظام الى اللانظام- ،دار الفكر العربي، ط1، 1993 ص30

(4)-محمد جواد رضا، العرب و التنمية و الحضارة- الإختيار الصعب. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط3، 1993 ص73

(5)- التربية عبرالتاريخ ،عبد الله عبد الدائم،مرجع سابق، ص127-128

- التربية عبرالتاريخ ،عبد الله عبد الدائم ،مرجع سابق ص372 (6)

(7)-الأمم المتحدة ،تقرير التنمية البشرية لعام 2013،تاريخ 14مارس 2013 .

(8)-مصطفى محسن، الخطاب الإصلاحي التربوي: بين أسئلة الأزمة وتحديات التحول الحضاري...، المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء،بيروت،الطبعة الأولى، 1999،ص19

(9)-مصطفى محسن ،نفس المرجع ص23-24

(10-عبدالله عبد الدائم ، . التربية و التنوير في تنمية المجتمع العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 2008 ص17.

(11)- عيسى علي، نزيه الجندي، التربية في الوطن العربي لطلاب دبلوم التأهيل التربوي. منشورات جامعة دمشق، دون طبعة، 1998.، ص234

(12)- مقالة بعنوان،نسبة الأمية بالوطن العربي 27في المئة، الجزيرة نت،2013/01/07

(13)- محمد منير مرسي، المرجع في التربية المقارنة. عالم الكتب، القاهرة، 2013، ص218.

(14)- عيسى علي، نزيه الجندي، التربية في الوطن العربي لطلاب دبلوم التأهيل التربوي، مرجع سابق ص243.

(15)- عيسى علي، نزيه الجندي، التربية في الوطن العربي لطلاب دبلوم التأهيل التربوي نفس المرجع ، ص251.

(16)- عيسى علي، نزيه الجندي، ، مرجع سابق ص267.

(17)- مرسي محمد منير ، المرجع في التربية المقارنة. عالم الكتب، القاهرة، 2013 ص242.

(18)- محمد منير موسى، الاصلاح والتجديد التربوي في العصر الحديث، عالم الكتب، القاهرة 1966، ص07.

(19)- حسن حسين البيلاوي، الاصلاح التربوي في العالم الثالث، عالم الكتب، القاهرة، 1998ص 32

(20)- أحمد الخشاب، الإصلاح التربوي و الإرشاد الاجتماعي، مصر، مكتبة القاهرة، سنة 1971، ص 13.

(21)- ديدوح عمر، الصراع اللغوي في الجزائر. مجلة المعرفة، عدد 176، نوفمبر2009، ص 20،

(22)- فضيل عبد القادر ، المدرسة في الجزائر – حقائق و إشكالات -. جسور للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، 2013،ص68

(23)- عبد القادر فضيل،المدرسة فى الجزائر–حقائق واشكالات،نفس المرجع ،ص68

(24)-عبد القادر فضيل ، ، نفس المرجعالسابق، ص 68

(25)-احمد دحمانى عبد القادر ،المدرسة الجزائرية وفق المقاربة بالكفاءات ،مجلة التربية والابستيمولوجيا العدد 3 سنة 2012 ص 124

(26)- عبد الله عبد الدائم واخرون ،التربية و التنوير في تنمية المجتمع العربي. مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، ص66.

(27)- النوري عبد الغني ، عبود عبد الغني ، نحو فلسفة عربية للتربية. دار الفكر العربي، ط2، 1979.ص329